ISSN: 1999-5601 (Print) 2663-5836 (online)

Lark Journal

Available online at: https://lark.uowasit.edu.iq

*Corresponding author:
Elaf Ali Challoob
Wasit University
Email:
elafa1222@uowasit.edu.iq
Asst. Prof. Dr. Ahmed Kathim Salman
Wasit University College of Arts
Email: Drahme72@gmail.com

Keywords: The Book of Travels, Abdullah Ibrahim, Ethnography.

ARTICLE INFO

Article history
Received 25 Feb 2025
Accepted 19Mar 2025
Available online 1 Apr 2025

Ethnography in The Book of Travels by Dr. Abdullah Ibrahim: An Analytical Study

ABSTRACT

The need for these studies emerged in response to the competition between political and economic institutions in the West to influence and control social reality through the media, directing it to serve their interests. As a result, research centers specializing in this field were established, focusing on studying the social and psychological characteristics of human societies to expand mass communication and use the findings of these studies to serve their objectives.

© 2025 LARK, College of Art, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/lark.4244

الاثنوغرافيا في (كتاب الاسفار) للدكتور عبد الله ابراهيم دراسة تحليلية

الباحثة ايلاف علي جلوب/ كلية الآداب –جامعة واسط
ا.م.د احمد كاظم سلمان/ كلية الآداب –جامعة واسط

المقدمة:

الإثنوغرافيا: المفهوم والنشأة والمنهج:

ظهرت الحاجة إلى هذه الدراسات، استجابة للمنافسة بين المؤسسات السياسية والاقتصادية في الغرب، للتأثير في الواقع الاجتماعي، والسيطرة عليه من وسائل الإعلام، وتوجيهه بما يخدم مصالحها، ولهذا أُنشئت مراكز أبحاث متخصصة في هذا المجال، وقد اهتمت بدراسة الخصائص الاجتماعية والنفسية للمجتمعات الإنسانية، من أجل التوسع بالاتصال الجماهيري، واستعمال نتائج تلك الدراسات لخدمة أهدافها.

الكلمات الافتتاحية : كتاب الاسفار ، عبد الله ابراهيم ، الاثنوغرافيا

مفهوم الإثنوغرافيا(Ethnography):

الأصـــل اللغوي للإثنوغرافيا: تتكون كلمة إثنوغرافيا (Ethnography) ذات الأصـــل اليوناني، من لفظ إثنو(Ethno)، وتعني: جنس، أو شعب، أو الأقلية، ولفظ غرافي (Graphy) ، وتعني الوصف والتصوير، وباجتماع هذين اللفظين، يصبح معنى الإثنوغرافيا : وصف ثقافات الشعوب وحياتها، أو الدراسة الوصفية للمجتمعات (سلطان2010: 10.)

الإثنوغرافيا (Ethnography) في الاصـــطلاح: يعرف كلود ليفي اشـــتراوس الإثنوغرافيا بأنَّها: "المرحلة الأولى من العمل، مرحلة جمع المعطيات، التي يســـتوجب القيام بتحقيق ميداني قوامه المعاينة المباشـــرة" (لوبار 1979: 12) أمّا ريد كليف، فقد عرفها بقوله: هي "معاينة الظاهرة الثقافية ووصـــفها عند الشـــعوب المختلفة" (لوبار12:1979) أي ملاحظة ووصـــف العادات والتقاليد والمعتقدات وســـائر القيم التي يعتنقها مجتمع ما، أمّا هوبل: فيرى أنَّ الإثنوغرافيا جزء من الانثروبولوجيا ، وهو مصطلح يستعمل "للإشارة إلى الدراسات الوصفية للمجتمعات الإنسانية ، ويختص عادة ، وليس بالضرورة بدراسة تلك المجتمعات التي يطلق عليها تعبير (المجتمعات المتخلفة) ، والتي هي في مستوى نسبي من التقدم الاقتصادي والسياسي" (الصالح 1420ه:196) من طريق الملاحظة والنقل المباشر الدقيق، أمّا دينكن ميشيل فيرى أنَّ الإثنوغرافيا عبارة عن دراسات وصفية "أي ملاحظة وتسجيل المادة الثقافية من الميدان. وهي تعني أيضًا وصف أوجه النشاط الثقافي كما تبدو من خلال دراسة الوثائق التاريخية" (هولتراكس :15:1972) ، وعليه فيمكن اعتبار الإثنوغرافيا منهجًا بحثيًا يتناول حياة الشعوب من طريق الملاحظة المباشرة ونقلها بصورة دقيقة. وقد "شغلت الإثنوغرافيا نفسها في المقام الأول بتسجيل حياة الشعوب وعاداتها في المجتمعات التي لا ينتمي لها الملاحظ

– عادة – مواضـــع بعيدة، أي بعيدة جغرافيًّا أو ثقافيًّا، عن الغرب، وتُرى مختلفة عن الثقافات الأوربية المألوفة. بدأت الأنثروبولوجيا بوصفها نوعا من التاريخ الطبيعي بدراسة للشعوب التي تمت مصادفتها على طول حدود التوســع الأوربي. هكذا فالأنثروبولوجيا هي المصــطلح الخاص بالحقل المعرفي الواســع الذي وضعت فيها" (اشكروفت :157:2010).

تحظى الثقافة باهتمام الدراســين الإثنوغرافيين، على وصــفه مصــدرًا من المصــادر المعرفية التي تزود الدارسين بمعارف بخصـوص طبيعة المجموعات البشرية التي تخضـع للدراسـة." وترتبط التعددية الثقافية بالاثنوغرافيا ارتباطا وثيقا اذ تقوم الاثنوغرافية بدراســة الثقافات والمجتمعات المختلفة " (جواد 2024 :946)

1- مفهوم الثقافة:

لا يتضـح مفهوم الثقافة من دون الوقوف على معناه اللغوي والاصـطلاحي، بسبب كثرة العوالق والملابسات التي تكتنفه.

الثقافة لغة:

اشــتقت كلمة ثقافة في اللغة العربية من الأصــل الثلاثي (ثقف)، وتطلق على معان عدة : كالحذق والفطنة والذكاء وسرعة التعلم وتسوية الشيء وتقويم اعوجاجه، كما تعني التأدب والتهذيب والمعرفة والعلم، قال ابن فارس: "ثقف: الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهو إقامة درء الشــيء، ويقال: ثقفت الفتاة إذا أقمت عوجها. ورجل ثقف لقف: ولك أن يصيب علمًا ما يسمعه على استواء"(ابن فارس 382:1) ، وجاء في تهذيب اللغة: "رجل ثقف لقف إذا كان ضابطًا لما يحويه قائمًا به، ويقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم" (الازهري81:2011).

- الثقافة اصطلاحًا:

لا شـك أنَّ الثقافة ذات دور كبير في صـقل الشـخصـية، حيث تكسـبها الثقة والقوة والاتزان ومعالجة الأمور معالجة موضــوعية، كما تكســبها الهيبة والوقار والرفعة والنبل وســائر الصــفات التي تحظى بالاعتراف الاجتماعي، ذلك أنَّ للمثقف دورًا فاعلًا في تطوير المجتمع، لهذا كان من الصعب أنْ يوجد تعريف جامع مانع للثقافة، غير أنَّه قيل في توصــيفها: إنّها تتمثل في "رقي الأفكار النظرية، والذي يشــمل القانون والســياســة والإحاطة بقضايا التاريخ المهمة، ورقي الأخلاق، والسلوك"(شريف 9:2001).

2- الثقافة والانثروبولوجيا:

تنتمي الثقافة إلى الحقل الانثروبولوجي من تركيز ما يعرف بالانثروبولوجيا الثقافية التي تعنى بدراسـة الثقافة في مجتمع ما، أو مجموعة بشــرية معينة، للوقوف على أنماط عيشــها، وطرق تفكيرها، وتفســير ســلوكها

والاشـــارة الى الابداع لديها(صـــادق : شـــبكة الانترنيت) . والدراســـة تكون في المجتمعات البدائية، أم في المجتمعات المتحضـرة، "ان احد الخصـائص المميزة لانثربولوجيا الثقافة هو اعتمادها على الدراسـة الحلقية والتي تهدف الى روية الثقافة المحلية او الثقافات المتباينة"(اســـماعيل45:1980) ، ومن هذا الباب اهتم الدارسون الى " فهم الانسان في ماضيه وحاضره من منظور كلي ليلقي الضوء على اهمية النسبة الثقافية ، والتي توضـح لنا انه ينبغي ان نتوقع انماطا للسـلوك الانسـاني بفرض قيمنا على المجتمعات غير المتشـابهة ؛ لأن كل واحد منا يتمركز حول ذاته وينظر الى العالم من منظوره الخاص " (45:1980)

3- الانثربولوجيا الثقافية في كتاب الأسفار:

ظهر عبد الله إبراهيم في كتابه الأسـفار دارسًـا إثنوغرافيًّا بامتياز، وإن لم يصـرح بذلك، ومع أنَّه في مقدمة كتابه أراد أن يخالف كبار الانثروبولوجيا الغربيين، وهو كلود ليفي شـتراوس، الذي اسـتنكر أن تكون الرحلة وسـيلة للمعرفة، فعرض قوله الذي اقتبسـه من كتابه "مدارات حزينة": "وأنا أكره الاسـفار، وها أنا ذا أتهيأ لرواية رحلاتي" (ابراهيم15:2022) ، وجهة الخلاف بينهما أنَّ عبد الله إبراهيم أحب أســفاره، ورأى فيها وسيلة للتعرف على حياة الشعوب وثقافاتها، وإنْ كان إبراهيم يحاول الالتفاف على مقولة شتراوس حين أولها بغير ما تظهر للقارئ أول وهلة فإنَّه حكم على كتاب شتراوس بأنَّه من أهم كتب الرحلات في القرن العشرين، والسـبب الذي دفع إبراهيم إلى هذا القول اكتشـافه بأنَّ كتاب شـتراوس قد أزاح اللثام عن شـعوب ظلت زمنًا طويلًا بعيدة عن الاهتمام، أو أنّها كانت مجهولة فاكتشـفها، وبعد ذلك يكشـف عن مخالفته شـتراوس صـراحة ليقول: "وسوف أخالف شتراوس بما صرح، فأنا أحب السفر، وعزمت على كتابة أسفاري، وعلى عكسه لدي يوميات توثق تفاصيلها، ولكن الاختلاف لا يقتصر على ظاهر الأمر، بل في عمقه، فبينما ندب شتراوس نفسه للارتحال إلى عالم عتيق، رحلت أنا إلى عالم جديد"(ابراهيم 16:2022)

لقد تابع عبد الله إبراهيم إحصـاء الفروق بينه وبين شـتراوس، حتى لكأنَّه يريد أنْ يظهر للقارئ أنَّ دراسـة المجتمعات الحديثة لم تكن عنده بدافع البحث والاكتشـاف، بل بدافع الفضـول، بيد أنَّه من خلال كلامه الطويل عن شـتراوس ومنهجه الانثروبولوجي، كشـف بجلاء أنَّه يقع في قلب الدراسـات الإثنوغرافية، يقول: "وفيما دون هو ذكرياته عن رحلات قام بها بعد زهاء عشـرين عامًا من القيام بها، قمت أنا بها بمثل تلك المدة تقريبًا، وفيما هو حرر كتابه وهو على مشـــارف الخمســـين من عمره، حررت كتابي وقد وغلت في الســـتين من عمري"(ابراهيم:16:2024) ، ولم يتوقف عبد الله إبراهيم عن إجراء المقارنة بينه وبين شـــتراوس، ليتابع قوله في نهاية مقدمة كتابه فيشير إلى أنَّ الثقافة الفرنسية قد احتضنت كتاب شتراوس، وقدمته إلى لغات العالم أجمع، ويتســـاءل بعد ذلك عن مصـــير كتابه هذا في الثقافة العربية، والمهم في هذا الكلام أنَّ إبراهيم يقر بأنَّ

كتاب شتراوس من أهم المؤلفات الأنثروبولوجيا في القرن العشرين، ثم يقارن بين كتابه وكتاب شتراوس فهذا معناه أنَّه باحث أنثروبولوجي أقام كتابه على غرار كتاب شتراوس، مع فوارق بسيطة ذكرها في مقدمة كتابه.

1- الانثربولوجيا الثقافية والإثنوغرافيا بين شعر "لوركا" وجغرافية "غرناطة":

في أولى رحلات عبد الله إبراهيم إلى غرناطة أراد أنْ يكشف عن وجه المجتمع الإسباني الثقافي من خلال التنقيب عن شخصية لوركا، وكان قبل وصوله إلى المكان لا يعرف الكثير عن هذا الشاعر، فكل ما كان في مخيلته عنه مجرد أفكار لا تغني، فهو يعرف: "أنَّ الشاعر ولد في غرناطة، وصاحب الغجر في كهوفها، واغتيل في بدايات الحرب الأهلية، وكان دون الأربعين، ولم يعثر على جثته بعد إعدامه، فأمسى ذكرى من ذكريات المدينة، رجل عشق الموت وقابله في غير مكانه"(ابراهيم :2022 :24) ، ثم يتابع سرده عن حياة لوركا مستعينًا بما قاله "سلفادور دالي"، حيث كان لوركا يبحث عن موته، ولما مات ظل يهجس بقصائده عن تمنيه تلك اللحظة، كما يذكر أشعاره في غرناطة كقوله: "لغرناطة نهران: أحدهما للدموع، والآخر للدماء"(ابراهيم 2022 :24) ، ثم يتابع كلامه عن نهاية لوركا في الحرب الأهلية إلى أنْ يكتشف أنَّ لوركا قد جمع بين اللطافة والعبقرية، وهنا يتوقف محللًا كيف التقت الثقافة العربية بالثقافة الأندلسية من خلال شخصية لوركا ليقول: كان "نتاجًا عربيًّا أندلسيًّا ينير ويفوح مثل أيكة ياسمين على مسارح إسبانيا"(ابراهيم :24:2022). نقف بهذا النص على منهجية عبد الله إبراهيم في التعامل مع الثقافة الإسبانية، وتبرز تلك للقارئ على النحو الآتي:

1- لم يكن عبد الله إبراهيم قاصدًا الحديث عن الشاعر الإسباني لوركا، وفاءً بمنهجه الذي ذكره في مقدمة الكتاب، أنَّ أسفاره إلى العالم الحديث لم تكن لغرض دراسي، بل كانت بدافع المتعة، وهذه إشارة لفظية فقط، لأنَّه برز هنا دارسًا انثروبولوجيا من الطراز الرفيع، ولاسيما في وقوفه على المكان من خلال عنصر الثقافة، فأظهر للقارئ غرناطة كما تبدت في عيون شاعرها العظيم لوركا.

2- زعم الباحث عبد الله إبراهيم أنَّه لا يحمل الكثير عن لوركا، ليفاجئ القارئ بمعلومات عميقة ووافية عن هذا الشاعر، وقد قام الباحث في ذلك لإثارة الدهشة عند القارئ، حيث زوده بمعلومات دقيقة ومرجعية عن لوركا، وكأنَّه حقنه بمعرفة دون أنْ يخبره أنَّه سيقدم معلومات دقيقة عن الشاعر.

3- نفذ من خلال سرده عن لوركا أحوال المجتمع الإسباني في زمن لوركا حيث عاش حروبًا أهلية مدمرة راح ضحيتها لوركا نفسه.

4- عبر من خلال حديثه عن لوركا كيف التقت الثقافة العربية الأندلسية بالثقافة الإسبانية في شخص لوركا، حتى لكأنَّ شعر لوركا هو باب للتعرف على حياة الشعب الغرناطي، ومدخل للتفاعل الحضاري بين ثقافة الشعر عندهم وثقافة الشعر العربي، وهذا باب من أبواب التواصل مع ثقافة الآخر، وذلك بإبراز ما هو

مشترك والذي أوجزه عبد الله إبراهيم بقوله في لوركا أنَّه جمع (اللطف والعبقرية)، وهي الصفة التي تصدق على كثير من شعراء العربية قديمًا وحديثًا كابن زيدون وابن خفاجة والبحتري وابن الرومي وأحمد شوقي وغيرهم.

5- إنَّ النزعة الثقافية التي دفعت عبد الله إبراهيم للدخول إلى ثقافة الغرناطيين من طريق الشاعر العبقري لوركا، تجعل عمله في صميم الانثربولوجيا الثقافية التي تهدف إلى إبراز ما هو مشترك في ثقافات الشعوب، ومن ثم تقديم فهم جديد لطبيعة تلك المجتمعات، فليست الثقافة العربية هي التي ترفع من شأن الشعر، بل الثقافة الإسبانية تفعل ذلك، وعلى هذا الأساس لم يعد التاريخ القديم الذي كان العرب فيه أسيادًا في إسبانية هو العنصر الذي يشد العرب إلى تلك البقعة الجغرافية فحسب، بل تحولت الثقافة أيضًا لأداء هذا الدور، ليغدو كلام عبد الله إبراهيم عن غرناطة إثنوغرافيا تنبعث من المكان وانثربولوجيا تنبعث من الثقافة.

2- مقهى "خيخون" في مدريد وأوهاج الثقافة المقاومة:

لم يغادر عبد الله إبراهيم المكان الإسباني دون أنْ يثبت العلاقة بين الثقافة والتغيير الاجتماعي، فالثقافة على اعتبارها من دوافع الحداثة الشعرية تركت بصماتها على مقهى "خيخون" ، فكان لا بد من استرجاع ما حدث في المدينة ليتم إبراز دور الثقافة في رفض الظلم والجور، وهي سجية تدل على حيوية الشعب الإسباني الذي لم يرض أنْ يعيش مستعبدًا لسلطة الجنرال فرانكو: "انتهى بنا الممر الذي اخترناه للسير ببوابة أدت بنا إلى مقهى "خيخون" حيث ظهرت الحداثة الشعرية في إسبانيا، المقهى الذي أقيم في العقد الأخير من القرن التاسع عشر بجوار المكتبة الوطنية، واحتضن كبار المثقفين الذين قاوموا بالجهر وبالصمت استبداد فرانكو منذ الحرب الأهلية. بيت قهوة متشرب بثقافة المقاومة، وفنون المعارضة، ندر لكاتب إسباني ألا يكون قد احتسى فيه كأسًا من نبيذ، أو فنجانًا من قهوة، وقل أنْ زار كاتب أجنبي مدريد من دون أنْ يعرج عليه. محج ثقافي يزدان بالموسيقا والكتب"(ابراهيم2022 :59).

في هذا المشهد السردي، كأنَّما مسح الباحث المكان المدريدي، أو أنَّه ثقّله بعبء الثقافة التي قامت بدورين جوهريين في حياة الشعب الإسباني: الدور الأول: أنَّ الثقافة في هذا المكان كان دافعًا إلى الحداثة الشعرية الإسبانية، فكان المقهى يضم كبار الشخصيات الأدبية التي كانت ترى في الانتقال إلى الحداثة هو انتماء اجتماعي إلى الحضارة المعاصرة، وفي ذلك تعبير عن سمات المجتمع الحداثي الذي تعد معرفته جزءًا من الحضارة المعاصرة، فالدراسة الاثنولوجية تتناول ثقافة المجتمع من باب اللغة، ثم تنطلق إلى بنية النظام السياسي والاقتصادي لتحليلها بتعمق(الصالح : 42) ، وهذا ما قام به عبد الله إبراهيم هنا، إذ نفذ من خلال الحديث عن الواقع الثقافي إلى تحليل دور الثقافة في التغيير، من خلال تسليط الضوء على المقهى وما يحمله من دلالات ثقافية معبرة، إذ كان يجتمع فيه المثقفون الذين دعوا إلى الحداثة الشعرية، وكان الكلام عن الحداثة

مقرونًا بالحديث عن مقاومة فرانكو المســـتبد، ولم يقف الأمر عند هذه الناحية، بل امتد إلى الدلالات الثقافية للمقهى لتشمل الحياة المعاصرة، فما من مثقف يزور مدريد إلا يعرج على ذلك المقهى، لأنَّه صار رمزًا ثقافيًّا للحداثة أوّلًا ثم لمقاومة المستبدين ثانيًا، إذن هذا منهج اثنولوجي قام على تحليل الواقع الثقافي والسياسي في مدريد في حقبة محددة وهي أواخر القرن التاسع عشر، اما الدور الثاني : الفعل الثقافي العبقري الذي شهده هذا المقهى فلم يزل منارة يقصدها المثقفون من كل شعوب العالم، فيتجدد بذلك الحوار الثقافي بين من مضى ومن لم يزل حيًّا، وعبد الله إبراهيم بتجسيده رمزية المقهى يشير إلى جدوى الفعل الثقافي في التقريب بين الثقافات البشرية، فمن ذا الذي يدير ظهره عن هذا المقهى إذ كان منطلقًا للحداثة الشعرية ومنطلقًا لمقاومة المستبدين؟

3- أسطورة أثينا وانبثاق الثقافة اليونانية:

أشار عبد الله ابراهيم في مقدمة كتابه أنَّه سيخالف شتراوس، فيختار وجهة مغايرة لوجهته، فإذا كان شتراوس قد ارتحل إلى العالم العتيق، فقد اختار إبراهيم نحو المجتمعات الحديثة(ابراهيم 2022: 16) ، ومع ذلك لم يستطع حين زار اليونان الانفلات من سحر أسطورة أثينا، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ الثقافة متجذرة في النفس، فلا يحسن أنْ نفصل ماضيها عن حاضرها، هذا محال، لذا كان حضور الأسطورة في كتاب عبد الله إبراهيم حضورًا للثقافة اليونانية بكل محمولاتها، يقول: "فيما أخذتني السيارة من المحطة إلى الفندق حضرتني أسطورة عن أثينا جدير بي ذكرها، أسطورة حول التسمية، وفحواها: أفاق أهل المدينة في أحد الأيام، فإذا بنبع ماء متدفق، وشجرة زيتون وارفة، ظهر فجأة في قلب مدينتهم، سابقة غير مألوفة، فما الذي حدث خلال الليل ليتدفق نبع تنمو زيتونة في غفلة عنهم؟ لم يتريثوا، فبعثوا وفدًا إلى معبد دلفي يستفهم عن الحدث الذي طرأ فجأة، فما تأخر ردّ عرافته: نبع الماء هو إله البحار "بوسيدون" وشجرة اكلزيتون هي الآلهة "أثينا"(ابراهيم2022 :131).

لقد خلقت هذه الأسطورة كما رواها عبد الله إبراهيم واقعًا سياسيًّا في مدينة أثينا منذ فجر التاريخ، فالإغريق من الشعوب التي كانت سباقة إلى النظام الديمقراطي، وهذا معنى لا يمكن أن تتجاوزه الثقافة حين يقوم بتحليل الواقع السياسي والثقافي لهذا الشعب، ويستكمل عبد الله إبراهيم هدفه هذا من خلال وشاح الأسطورة ليصور نزاعًا بين رجال مدينة أثينا ونسائها بخصوص اختيار اسم لمدينتهم، فأراد الرجال أنْ تسمى المدينة باسم ذكر، وأرادت النساء تسميتها باسم أنثى، وقد احتدم الخلاف إلى أنْ اهتدوا إلى التصويت فغلبت أصوات النسوة أصوات الرجال، فكان اسم المدينة أثينا(ابراهيم 2022 :132).

4- وأد الثقافة:

هنالك علاقة عدائية مستقرة منذ الأزل بين الحاكم والمثقف، ولتأييد هذه الفكرة التي تعاني منها الثقافة في العصور كافة توقف عبد الله إبراهيم في رحلته إلى اليونان عند أكاديمية الفلاسفة والشعراء، فقال: "إنني ميال لأن يكون هذا المكان هو الذي حدث فيه أفلاطون وأرسطو أتباعهما عن معارف الإنسان، وهو المكان الذي حفل فيه سوفوكليس ويوربيدس وأسيخلوس بمآسيهم، ولكن معظم ذلك تبدد في طيات الجهل والرغبة، فكأنَّ المعرفة أعدم من الكبريت الأحمر، فربما أكون قد خطوت في ربوع الأكاديمية التي قاربت الدهر زهاء عشرة قرون تنفث المعرفة قبل أنْ يوصد أبوابها الامبراطور الروماني جوستنيان في القرن السادس، لاعتقاده أنّها مصدر تهديد للعقيدة المسيحية. إنَّ الانجرار إلى محو آثار الماضي بذريعة تهديد الحاضر إحدى أكثر لوثات التاريخ ضررًا فهي من حماقات قصيري النظر"

(ابراهيم 2022 :136).

في العبارة الأخيرة في هذا النص يكمن هدف الباحث عبد الله إبراهيم، وهو تفسير ما كان من أغلاق أكاديمية الفلاسفة والشعراء في أثينا، إذ شكلت خطرًا على العقيدة المسيحية، لذا قال إنَّ جوستينان قصير النظر حين أغلق هذا المعلم الثقافي المهم بذريعة الحفاظ على الدين، والواقع أنَّ الثقافة لا تشكل خطرًا على الأديان لكنها تشكل خطرًا على الحاكم، الذي يريد أنْ يقود شعبًا بلا ثقافة وبلا فكر، لأنَّ الثقافة والفكر لا تصنع شخصًا ينقاد إلى سلطة الحاكم انقيادًا أعمى، وهذه مشكلة الثقافة في الواقع، حيث تعاني شعوب كثيرة من التهميش والتجهيل ليكونوا أشبه بالقطيع الذي يسهل قيادته بحسب مآرب الحاكم دون اعتراض.

5- لقاء أدونيس والملاحظة المباشرة:

في أثناء زيارة عبد الله إبراهيم إلى باريس، كان لا بد من لقاء شاعر الحداثة العربية أدونيس، يقول: "في أول المساء وجدت أدونيس ينتظرني في الدوماغو، وقد انسدل شعره الفضي على قفاه، وابتسامة طافحة على وجهه كأنَّه القديس المنحوت من صخر" (ابراهيم2022: 226) ، ولم يكن اللقاء بينهما من باب الاستمتاع، بل كان محركًا لحوار عميق يخص الثقافة الدينية، حيث كان الإسلام محور حديثهما، فاسترجع إبراهيم في ذلك اللقاء ما دار سابقًا بينه وبين أدونيس " وفي تلك السهرة أعيد بعث موضوع قديم طرقناه أدونيس وأنا قبل سنوات؛ سبل تحرير الإسلام من الغطاء اللاهوتي الذي حبسه مدة تزيد على ألف عام. وسبل نزع العنف عنه. وسبل الارتياب بالآخرين فيه. وغاية ما نرجوه إثراء بُعده الإنساني بلفت الانتباه إلى نشاطه الحر في تغذية العقل والنفس قبل أن يحتجب خلف المدونة اللاهوتية والفقهية . كنت حديث عهد في ذلك الموضوع" (ابراهيم 2022 :226) نجد ان مجمل الحديث دار في تحرير الإسلام من الغطاء اللاهوتي الذي ستره نحو ألف عام، ولا سيما تخليص الإسلام من العنف، والتركيز على البعد الإنساني فيه ونشاطه الحر في تغذية العقل والنفس، قبل أنْ يستتر خلف الأغطية اللاهوتية والفقهية، كذلك تعرضا للحديث عن فكرة التحول والثبات الذي ميز

الفكر الأدبي والفقهي والكلامي، ثم تعرضـــا للحديث عن التكفير والتشـــنيع والتهديد الذي عرف عند بعض المتشـــددين، فأدونيس على حد وصـــف عبدالله إبراهيم هو فيلســـوف وشـــاعر ومثقف، ولا خلاف حول هويته الابتكارية، لكنه انخرط في البحث في سجلات الفكر الديني وكشف عن الهوة التي تفصل بين مفهومي الإنسان في إطار النموذج الديني القديم، والنموذج الحديث، فوقف موقف العداء من الدين من غير مواربة(ابراهيم 2022 227) ، هذه النتيجة التي نجم عنها الحوار بين أدونيس وعبدالله إبراهيم، لم تكن معلومات حصل عليها الباحث من الكتب أو الوثائق، بل كانت نتيجة مشـاركته في الحوار، وملاحظته المباشـرة، التي تكون مصـدرًا للمعلومات لديه، فعمله هنا هو عمل إجرائي يشـــبه عمل الدارس الإثنوغرافي الذي يعمد إلى البحث الإجرائي الذي يستلزم منه الفهم والمشاركة والوصف(وصفي :166).

6- الحوار الثقافي والنظرة الغربية إلى الأدب العربي:

ذكر عبد الله إبراهيم أنَّه في أثناء زيارته لبيت آل ستيتكيفيتش في أمريكا انصـب الحديث على الآداب القديمة، ذلك لأنَّه تبين من خلال الحوار الذي دار في ذلك المكان أنَّ النظرة الغربية للآداب العربية، ليست كلها تندرج ضـــمن ما قاله المســـتشـــرقون في ذلك الأدب، فهنالك باحثون اســـتنطقوا التراث العربي بموضـــوعية مثل "ياروسـلاف" الذي ارتاد حقلًا بكرًا لم يدخله المستشرقون الغربيون من قبل، معتمدًا على ما بلورته مدرسـة شيكاغو من قواعد بحثية منهجية، وقد مضت على نهجه الباحثة "سوزان" التي اهتمت بالشعر العربي القديم، فهذان الباحثان حجما المعايير التي طبقها المســـتشـــرقون على الأدب العربي، ومن ثم تم الاقتراح من خلال الحوار بإيجاد سـياقات ثقافية متصـلة بالأدب العربي نفســه، دون مقايســة بينه وبين بقية الآداب، ومن ثم تم التركيز على استكناه هوية الأدب ضمن تشكله في حواضنه الثقافية الخاصة به (ابراهيم 2022 : 400).

لا شـــك أنَّ الدخول في حوار من قبل الباحث، مع باحثين غربيين، بموضـــوع حوار يتعلق بالأدب العربي، غايته زحزحة ما ثبتته حركة الاســـتشـــراق في أذهان الجمهور الغربي، من أفكار، أحس عبد الله إبراهيم أنّها ظلمت الأدب العربي، فكان من أبرز أهدافه في هذا الحوار لقاء باحثين موضوعيين حجما آراء المستشرقين، مما فسح المجال لتقريب وجهات النظر إزاء أهمية الآداب العربية، ومن ثم تغيير المنهجية الاستشراقية التي تقوم على المقايسة بين الأدب العربي. أن باحثًا كعبد الله إبراهيم أراد إعادة بناء جسور لحوار موضوعي من شـأنه أنْ ينصـف الأدب العربي، ويحمله على أسـاس سـياقاته الخاصـة وظروفه التاريخية وهي الحاضـن الأساسي له.

يظهر عبد الله إبراهيم هنا مشاركًا في الحوار مع الشخصيات التي تمثل جماعات اجتماعية، محكمًا الملاحظة المباشرة، ومعبرًا في الوقت نفسه عن تفاعله الإيجابي مع الباحثين الذين أسهموا في تغيير النظرة التي تستهين بالأدب العربي القديم، وهو الهدف من ذلك الحوار الثقافي الذي يســـعى إلى تغيير قناعات الباحثين الغربيين

بخصـوص الأدب العربي، وفي الوقت نفسـه إعلام المثقفين العرب الذين يعتزون بأدبهم، أنَّ الثقافة الغربية لا تمضي وفق ما رسمه المستشرقون من معايير أضرت بقيمة الأدب العربي، بل هنالك باحثون منصفون جروا وفق معايير أخرى، غير المعايير الاستشراقية، فذكر مدرسة شيكاغو مثالًا دالًّا على التحول في آراء دارسي الأدب العربي من الغربيين.

7- متحف غوغنهايم وحوار الفنون:

لم تنتهِ رحلات عبد الله إلى العالم الجديد دون إمعانه النظر إلى اللوحات الفنية التي رسمها كبار الفنانين، أمثال لكاندينسـكي، وكورث شـوتزر، وبول كيلي، وموهالي ناجي، وجوزيف البرتز، وجان لون، وفرينيان ليجه، وخوان ميرو، فضلا عن التماثيل كتمثال "المرأة الملعقة" للفنان جياكوميتي، وقد لاحظ

عبد الله إبراهيم كيف اختلطت المذاهب الفنية في تلك اللوحات، فهنالك لوحات مزجت بين الانطباعية السـريالية، بجانب لوحات مشـاهير الفن مثل بيكاسـيو ولوتريك وغوغان، حيث مثلت بدايات لأعمالهم الفنية، وكانت زيارته تلك استكمالًا لزيارات أخرى قصد فيها معارض فنون في أوروبا لأمستردام ومدريد وباريس ولندن، مميزًا من خلال ذلك بين المدارس الفنية كالانطباعية، والسـريالية، والتجريبية، وغيرها(ابراهيم 2022 :454).

8- نيويورك في عيون لوركا وأدونيس وإدوارد سعيد:

في أثناء تجوال عبد الله إبراهيم في مدينة نيويورك ذات الأبنية الشـاهقة، لم تشـده فخامة العمائر التي شـيدت على الطراز الحديث وهي تناطح السـحاب، بل أراد أنْ يغمض عينيه عن تلك الصـورة التي عجز عن تفسـيرها، ففن العمارة الذي ميز نيويورك لم يكن شـيئًا أمام الصـورة الثقافية التي جسـد فيها "لوركا" مدينة نيويورك حين قال: "إنّها مدينة قاتمة، فجرها أعمدة من الوحل، وإعصـار من غربان غارقة في مسـتنقعات آسـنة"(ابراهيم 2022 :470) ثم جاء أدونيس ليكمل رسـم صـورة نيويورك التي بدأها "لوركا" فغاص في أعماقها ليقول: "جسد بلون الإسفلت، حول خاصرتها زنار رطب، ووجهها شباك مغلق، وأهلها يائسون غير منظورين، يتغلغلون كالغبار في نسـيج الفضـاء" (ابراهيم 2022 :470) ، ثم جاء الناقد الفلسـطيني إدوارد سعيد ليضع لمساته الأخيرة على لوحة نيويورك الأدبية فقال: "القلقة، والمضطربة، والمتنوعة بغير انقطاع، والمفعمة بالطاقة، والمتقلبة، والمقاومة، والقادرة على الاستغراق والامتصاص"(ابراهيم 2022 :470).

لاشك أنَّ صـورة نيويورك كما جسدها ثلاثة أدباء كبار: لوركا، وأدونيس، وسـعيد، هي صـورة ثقافية للمدينة العصـرية، حيث لم يخدعوا بمنظرها العمراني الباهر، وإنّما تغلغلوا في أعماقهم ليظهروا منها ما اسـتقر في دواخلهم من معان تتصل بهذه المدينة الضخمة، والغريب أنَّها ظهرت مدينة بائسة تختلف في جوهرها اختلافًا كليًّا عما يبدو فيه مخبرها وظاهرها، حتى كأنَّ أدونيس اتفق مع لوركا، مع أنَّه جاء بعده بكثير على كشـف

حقيقة المدينة بصورها التي ترسبت في الوجدان الشعري، لهذا كانت مدينة كئيبة إلى درجة أننا نصدم حين نقرأ ما قاله هذا الشاعران عن المدينة العملاقة.

أمّا إدوارد سعيد فنظر إلى مدينة نيويورك بعين الناقد المتفحص، لتظهر له ليس بالسوء نفسه الذي عبّر عنه كل من "لوركا" و"أدونيس"، ومن هذه الأبعاد الثقافية التي رسمت على أساسها مدينة حداثية كمدينة نيويورك، نجد أنَّ الثقافة الأدبية لها منظارها الخاص في الحكم على الحضارة الجديدة(سعيد 9549:2003).

صور عبد الله إبراهيم الصورة الثقافية لمدينة نيويورك من كلام "لوركا" و"أدونيس"، ولإبراز التناقض، عرض قول إدوارد سعيد فيها، والواقع أنَّ إبراهيم يتبنى رأي لوركا وأدونيس ويوافق على ما قالا فيها، بدليل أنَّه عرض القولين وكأنَّهما متزامنان، والحق أنَّ زمن لوركا أقدم بكثير من زمن أدونيس، إذ يفصل بينهما قرن من الزمان على الأقل، ومع ذلك وصل بين القولين على تباعد زمنيهما ليثبت أنَّ نيويورك عاصمة الحداثة لم يتغير جوهرها، فظلت محافظة على بؤسها الثقافي منذ زمن لوركا وحتى زمن أدونيس، ففخامة البناء لا تدل على تطور الثقافة فيها، إذ ما زالت كئيبة ثقافيًّا، مع تغييرات طفيفة بحسب كلام إدوارد سعيد، وهذا المنهج الذي اتبعه عبد الله إبراهيم لا يتعلق بالمظهر العمراني للمدينة وإنّما يتعلق بجوهر الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع له ثقافته، فلم يرَ من هذه الناحية أنَّ الحضارة الحديثة التي بدت مظهرًا خارجيًّا لمدينة نيويورك قد شمل الإنسان الذي يعيش فيها، ولا أدل على ذلك سوى ما ساقه عبد الله إبراهيم من كلام أدونيس (وأهلها يائسون غير منظورين، يتغلغلون كالغبار في نسيج الفضاء)، وقد استشهد بهذا الكلام ليقول من خلاله إنَّ الثقافة هي ما يمثل جوهر الحضارة، وأمّا البناء فهو واجهة وشكل ليس غير، مما يشير أنَّ البحث الذي أقامه عبد الله إبراهيم ما هو إلا بحث انثربولوجي ثقافي قائم على الملاحظة المباشرة واستخلاص الأحكام من خلالها، على اعتبار الانثربولوجيا علمًا يهتم بدراسة الثقافة الإنسانية، وانعكاس تلك الثقافة في سلوكيات أفراد المجتمع (الجوهري 21:2007).

والحقيقة ان عبد الله ابراهيم في ذكره لمدينة نيويورك وما انطوت عليه من تناقضات لم يكن هو صاحب هذه الفكرة بل ذكرت هذه التقسيمات للمدينة مسبقا على يد الكاتب ديب ثائر الذي كان يرى ان ادوارد سعيد قد قسم هذه المدينة " فإن نيويورك إدوارد سعيد تظل مختلفة. فهي، كما يعترف سعيد، بادئ ذي بدء، متعددة وليست واحدة، متقلّبة وليست ثابتة، تستمد أهميتها من غرابة أطوارها ومن ذلك المزيج الخاص المتنوّع من الصفات والخصائص التي تميّزها. وهي صفات وخصائص ليست إيجابية وحسب، بل سلبية أيضًا، خاصة بالنسبة لمقيم فيها" (سعيد 9549:2003) . فديب ثائر يستعرض من خلال مقالته التقسمات التي يراها ادوارد سعيد ويقارن بينه وبين اودنيس الا ان عبد الله ابراهيم زاد عليها بذكر الشاعر لوركا.

النتائج :

- يُظهر عبد الله إبراهيم أن الإثنوغرافيا ليســت مجرد جمع بيانات عبر الملاحظة الســطحية، بل هي منهج بحثي يتضــمن المشــاركة المباشــرة والتمعّن في التفاصــيل الثقافية، ســواءً من متابعة الرحلات أو من لقاءات حوارية مع فاعلين ثقافيين.

- يتضح من الدراسة أن الثقافة ليست معزولة؛ إذ ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالواقع الاجتماعي والسياسي.

- يستخدم إبراهيم شخصية الشاعر "لوركا" مَدخلا لفهم جغرافية وثقافة مدينة غرناطة، مما يُظهر كيف يمكن أن يكون للأدب بوابة للتعرف على الثقافات المختلفة وربطها بجذور حضــارية مشــتركة، خاصــةً بين التراث العربي الأندلسي والثقافة الإسبانية.

- يتضــمن العمل حوارًا مع التيارات الفكرية الغربية التي غالبًا ما تقلل من قيمة الأدب العربي. ويُظهر إبراهيم من خلال لقاءاته (مثل لقاء أدونيس) وأمثلة على النهج المنهجي لباحثين مثل مدرســة شــيكاغو، أن هناك إمكانية لإعادة تقييم الأدب العربي في سياقه الخاص بعيدًا عن المقارنات النمطية.

- تؤكد الدراســة على أن البحث الإثنوغرافي كما يمارســه عبدالله إبراهيم يســهم في الكشــف عن عمق التفاعل بين الإنسان ومحيطه الثقافي.

المصادر :

- أضواء على الثقافة الإسلامية، نادية شريف العمري، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 2001:.

- الانثروبولوجيا الاجتماعية، عاطف وصفي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ،1990م

- الانثروبولوجيا الثقافة ، دكتور فاروق مصطفى اسماعيل ، الهيئة المصرية العامة للكتب ، 1980 .

- الانثروبولوجيا الطبيعة والثقافة (علم الانسان الطبيعي والثقافي ، د ازهر مصطفى صادق ، بحث منشور على شبكة الانترنيت fac.ksu.edu.sa/sites/default/files/_lwl_mn_lmqrr.pdf .

- التعددية الثقافية في الرواية العراقية إمقاربة ثقافية ، حوراء جواد عبود ،مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية ، المجلد 16:العدد3:الجزء 1، 1-7-2024م

- تهذيب اللغة، الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 2001.

- دراســات ما بعد الكولونيالية، بيل اشــكروفت، جاريت جريفيت، هيلين تيفين، ترجمة: أحمد الروبي وآخرون، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2010.

- قاموس الإثنولوجيا والفلكلور، إيكه هولتراكس، ترجمة: محمد الجوهري وحســين الشــامي، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1972.

- قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية الشامل، مصلح الصالح، دار عالم الكتب، السعودية، 1420ه.

- كتاب الأسفار، عبد الله ابراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الاولى 2022م.

- مدخل إلى الإنثروبولوجيا، جاك لومبار، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1979.

- مقاييس اللغة، ابن فارس: 382/1

- نيويورك ادوارد سـعيد اكثر من مدينة ، ديب ثائر ، مجلة السـفير ، العدد 9549، 2003م منشـور على صـفحة الانترنيت : https://archive.assafir.com/ssr/1228105.html

:Sources

. Lights on Islamic Culture, Nadia Sherif Al-Omari, Al-Risala Foundation ,

1 st ed., Beirut, 2001.:

- Social Anthropology, Atef Wasfi.
- Cultural Anthropology, Dr. Farouk Mostafa Ismail, The Egyptian General Authority for Books, 1980.
- Anthropology of Nature and Culture (The Science of Natural and Cultural Anthropology, Dr. Azhar Mostafa Sadiq, research published on the Internet fac.ksu.edu.sa/sites/default/files/_lwl_mn_lmqrr.pdf.
- Cultural Pluralism in the Iraqi Novel | Cultural Perspective, Houra Jawad Abboud, Lark Journal of Philosophy, Linguistics, and Social Sciences, Volume 16: Issue 3: Part 1, 1-7-2024.
- Language Refinement, Al-Azhari, Edited by: Mohammed Awad Mura'eb, Dar Ihya al-Turath al-Arabi, 1st ed., Beirut, 2001.
- Postcolonial Studies, Bill Ashcroft, Gareth Griffiths, Helen Tiffin, Translated by: Ahmed Al-Roubi and others, The National Translation Center, 1st ed., Cairo, 2010.
- Dictionary of Ethnology and Folklore, Ikeh Holtrax, Translated by: Mohammed Al-Johari and Hussein Al-Shami, Dar Al-Ma'arif, 2nd ed., Cairo, 1972.
- Comprehensive Dictionary of Social Sciences Terminology, Muslih Al-Saleh, Dar 'Alam al-Kutub, Saudi Arabia, 1420 AH:
- The Book of Journeys (Abdullah Ibrahim, al-Mu'assasah al-'Arabiyyah li al-Dirasat wal-Nashr, al-Tib'ah al-Awwaliyah 2022.(
- Introduction to Anthropology, Jack Lumbard, Arab Cultural Center, Beirut, 1979.
- Language Metrics, Ibn Fares: 1/382
- New York, Edward Said: More Than a City, Deep Thaer, As-Safir Magazine, No. 9549, 2003, published on the Internet page: https://archive.assafir.com/ssr/1228105.html